

أم الحضارات وأرض الكنوز المنهوبة

بابل

اعتراف متأخر من اليونسكو بمهد الشرائع

زيد بن رفاعة

مُلئت المتاحف الأوروبية بآثار بابل، حُمِلت منها بوابة عشتار إلى برلين، ونقلت شريعة حمورابي إلى باريس، بعد أن وجدت في فارس الإيرانية، منقولة بالأصل من بابل. وضم متحف لندن العريق فخاريات وتمائيل المعابد من بابل أيضاً، ناهيك عن بقية آثار العراق، فأرض هذه البلاد مناجم للآثار مثلما هي مناجم للنفط.

لكن مع ذلك ظل طلب الحاق منطقة بابل الأثرية كواحد من التراث العالمي المحمي دولياً معطلاً في اليونسكو، منذ 1983 حتى الأسبوع الأول من هذا الشهر، فصدر القرار عن طريق التصويت في لجنة التراث العالمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة "اليونسكو"، وجاء النبا من باكوا عاصمة أذربيجان، حيث اجتمع المنظمة.



نداء الأب أنستاس الكرملني بالحفاظ على بابل ما يزال يتردد، وهو الذي كتب مرة «إن الأبنية نفسها، التي كانت قائمة على أديم الأرض، هدمت منذ عهد عهد، ليستخرج منها الأجر، فاستخرج منها شيء لا يتصوره العاقل لكثرت، وبنيت به أبنية ليثما لم تبين ولم تكن»

إنها مساحة لا تتجاوز الكيلومترات العشرة، هذا كل ما بقي من بابل التي حكم ملوكها شرقاً وغرباً، وجاء في نقاش ممثل لجنة اليونسكو "ما هي لأحة التراث العالمي من دون بابل؟ كيف سنخبر تاريخ الإنسانية من دون أول فصولها، بابل؟"

لجنة اليونسكو من جهتها، تعرف جيداً، وقد أشارت إلى أن تلك المساحة الصغيرة والعريقة في التاريخ في حالة محفوفة بالمخاطر وبحاجة ماسة إلى الحفاظ عليها ومنعها من الانهيار. الجميع يعرف أنه إذا ظلت المنطقة الأثرية من بابل بلا حماية دولية فسينتهي وجودها وتبقى في الكتب فقط. فكم من حروب مرت عليها، وسرقات جرت على قدم وساق، وهذه الحاضرة الشاسعة لم يبق منها سوى ما حفرت التربة، بينما للبشرية، وليس العراق فقط، الحق في الاحتفاء بإرث بابل.

خلف بوابات عشتار

قبل سنوات احتفى المتحف البريطاني بإرث بابل عبر استضافته للمكتونات العراقية القديمة بمتحف برلين، من بوابة عشتار "الأصلية". وعلى الرغم من الزمن

السحيق ما زالت السوان أحجار البوابة زاهية، ومن الحق أن يقول المتمتع فيها: بأي مادة سرمدية طلال مفرداتها الفنان البابلي، وكيف شكلها هذه التشكيلة العجيبة، ليعطيها قوة البقاء عبر الدهور الدهرية؛ كذلك شغل ضريح الملك نبوخذ نصر، حيث بابل، غرفة كبيرة تحت الأرض، ويبدو المكان مثل مزار مقدس. هاجس الزائر وهو يطوف حول الضريح الحجري معرفة ما بداخله، فإين جسد الملك ومجوهراته المدفونة معه، كما ورد في الألواح؛ عموماً لم يبق من الإنسان البابلي، الذي صال وجال وشيد تلك الحضارة العظيمة، غير جثمان متفحم لصبي ما زال محتفظاً بهيئته الخارجية، معروضاً داخل صندوق زجاجي. أما عن كنوز بابل الذهبية فيؤكد أهل المدينة أنهم يعثرون بين فترة وأخرى على ضريح مفتوح، فيه عظام وجماجم، تركها السراق بعد أن نهبوا ما فيها من المعدن النفيس والحجر الكريم.

أشارت الروايات التاريخية إلى العبث بإرث البابلي وذلك ببناء مدينة واسط من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم شيد، بعده، الخليفة أبو جعفر المنصور المتوفى بأحجارها وبوابات واسط نفسها مقره الذي عُرف ببغداد المدورة، ومن قبل ذلك أقيم طاق كسرى بأحجار قصور بابل، ومن بعد بنيت بيوت الحلين، يوم أسست مدينة الحلة من قبل المزيديين، لتكون عازلاً يحمي بغداد عاصمة العباسيين من غزوات القبائل البدوية، كقبيلة خفاجة آنذاك، فأكثر البناء القديم لبيوت الحلة كانت جدران بابل مادته، ولكن من أين للسكان أن يعرفوا أن الحجرة الواحدة لا تقدر بنمن؛ وربما عن جهل ضاعت تلك الأحجار في مرافق البيوت الصحية، وظل الهدم جارياً من تلك التسول، لا بحثاً عن الآثار وإنما عن الأحجار، حتى تحولت خرائب تلك القصور والمعابد إلى مقالع للأحجار، وحُمِلت إلى الأماكن المراد إعمارها.

بلاد الدمار

لعل ما شاع عن بابل، من أنها بلاد الشَّر والكفر والدمار، أثر على موقعها وحصانتها، بينما رُفعت مدن حولها إلى درجة التقديس، وظلت هي مكانا للشياطين، حسب التراث الديني الروي عنها. فقد ورد اسمها في الكتاب المقدس "التُوراة" أكثر من مئتي مرة، وجاء اسمها من "باب أبلو" من اللغة الأكديّة ومعناها "باب الله". وأول تلك النصوص ما ورد عن نشأتها على يد الملك النمرود "وكان صياداً جباراً أمام الربّ... أول مملكته بابل وارك (أوروك) وَاكَد".

أما في القرآن الكريم فقد ورد ذكرها مرة واحدة، مرة عابرة للمتمثل والاستشهاد، كما كان للسحر والشياطين "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَكِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمُونَ أَحَدًا حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ قَتْلَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ

به بين المرءَ وَوَجْهَ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ". فلم تذكر بابل في الكتب المقدسة إلا للتحذير من شرور أو جبابرة أو شياطين. ظل اسمها يتداول، بهذا المعنى، في الشعر العربي مرتبطاً بالسحر والخمر، والإمثلة على ذلك كثيرة، ويكفي منها ما قاله أبو الطيب المتنبي، وأبو العلاء المعري.

قال المتنبي رابط السحر بابل "ما نسال أهل الجاهلية كلهم/ شعري ولا سمعت بسحري بابل"، وقال المعري رابطاً صناعة الخمر ببابل "البابلية باب كل بليّة/ فتوقن هجوم ذاك الباب". إلا أن بابل المزمومة نكرها ماني بن قاتك الذي عاش وأعدم بالمداين في القرن الثالث الميلادي، وصاحب الديانة "المانوية" على أنها دار الإمامة، أو دار الرئاسة "لا يجوز أن يكون الرئاسة إلا في وسط الملك ببابل". وقيل من تقاليد هذه الديانة "ترك أذية الماء والنضار والشجر والنبات".

لم يكن الإطباب عند "باب الله" هذا إلا لغرض ربط ما تناولته به الكتب المقدسة، بحدود حكايات وتصورات واعتقادات، ثم ما أتى به الشعراء. وقد أصبحت بابل خراب، بما اتخذ من ذريعة لهمد التجاور الديني، الممتد إلى عهد بابل نفسها، حيث صدرت فتوى قتل جماعية ضد الضابطة المندائين، وهم القاطنون على ضفاف أنهر العراق وأهواره منذ القدم، وربما كانت ديانتهم ذات صلة بانجواء بابل نفسها.

بابل في الذاكرة الشعبية

كذلك تجد لبابل في التقليد الشعبي مكانة فيها شيء من التقديس، وليس أرض سحرية وخمارين فحسب، وهو أن الشمس ردت على علي بن أبي طالب ببابل، وربما كان ذلك مكان معبد الشمس المشهور لدى أهل بابل القدماء. كذلك ذمت كثيرا في كتب الحديث الشيعية.

كل هذا يدل على الانقطاع بل والاعتراق بين بابل وما عبقها، وما إن اكتشف ما بين تلك الخرائب من فن راق وعلم متقدم حتى سار "على نهر دجلة الكثير من السفن والأكلال المسروقة بالمنحوتات" إلى المتاحف الأوروبية. ومن تلك الآثار ما حملته الألمان من آثار إلى متحف "بيرغامون" في برلين، بعناية فائقة. حملت أحجار البوابة مرقمة على هيئة جودها في شارع الموكب البابلي الشهير. ومن الغرابة بمكان أن يكون الأصل في برلين ونسخته في بابل، لكن بعد سرقة المتحف العراقي وتحطيم محتوياته قال يومها الكثيرون "ليت تلك الآثار تحولت إلى متاحف الأوروبية كافة".

لا شك أن أور وبابل ونيوى والحضر ولكش وسواها لم تكن محصورة بمناجمها الأثرية؛ إنما كانت مدناً في طول الأرض وعرضها، فإين ذهب بناؤها وأين اختفت أحجارها؛ وياتيك الجواب من الأب أنستاس الكرملني "تنبية عام، أجل إن الأبنية نفسها، التي كانت قائمة على أديم الأرض، هدمت منذ عهد عهد،

ليستخرج منها الأجر، فاستخرج منها شيء لا يتصوره العاقل لكثرت، وبنيت به أبنية ليثما لم تبين ولم تكن". تضعد احتفالية المتحف البريطاني الفخمة بإرث العراقي، المشار إليها سلفاً، أمام مفارقة حادة بين ماضي العراق السحيق وحاضره: هل هناك انقطاع تام بين جيل مخترعي الكتابة والعجلة وفناني بوابة عشتار وبين الأجيال اللاحقة حتى الجيل الحاضر؛ وهل أفرغ العراق من أولئك البشر صناع تلك الحضارة، التي ينحني الغرب لبقاياها؛ وهل أن صلة النسب بين الغابرين والحاضرين، التي نتحدث عنها ونفخر بها، مجرد خرافة وأنواع؟

دستور حالم

كم تبدو ديباجة الدستور العراقي "نسخة العام 2005" حاملة ومنقطعة عن زمنها وهي ترى التواصل بين الانقطاع بين ما يحتفل به من أثر، على أنه مهد الحضارة، والأيدي التي كتبت واستقتت بما نصه "تحن أبناء وادي الرافدين موطن الأبناء ومثوى الأئمة الأطهار ورواد الحضارة، وصناع الكتابة، ومهد الترميم. على أرضنا سن أول قانون وضعه الإنسان، وفي وطننا خط أعرق عهد عادل لسياسة الأوطان".

نعم، كل هذا تشبه به تلك الآثار وتصرخ به الأرض كلما استقرتها تراجعات الأزمنة الغليظة، لكن ماذا عن العراقي الحاضر وتفاعله مع إرثه الحضاري؟ أرجو ألا تكون مقالة التواصل مجرد ترميم معنوي لما تكسر من النفوس وتراجع من العقول، فالجحوة، كما تبدو، كبيرة ومخيفة بين تلك الحضارة ومعطيات ما تلاها، والأسباب لا تعد ولا تحصى.



مساحة لا تتجاوز الكيلومترات العشرة، هي كل ما بقي من بابل التي حكم ملوكها شرقاً وغرباً، بابل التي قال عنها ممثل العراق لدى لجنة اليونسكو «ما هي لأحة التراث العالمي من دون بابل؟ كيف سنخبر تاريخ الإنسانية من دون أول فصولها، بابل؟»



● اعتبار منطقة بابل الأثرية جزءاً من التراث العالمي يعد خطوة عظيمة، مع تاخرها، لكن هل هناك من يُنفذ شروط اليونسكو، أم أن حالها سيكون كحال الأهوار؟



● الروايات التاريخية تحكي الكثير عن العبث بإرث البابلي وذلك ببناء مدينة واسط على يد الحجاج وتشبيد الخليفة المنصور لبغداد المدورة بأحجارها، ومن قبلها أقيم طاق كسرى بأحجار قصور بابل.

إلى وزارة الخارجية العراقية محتجاً على تعيينه مديراً للآثار، بذريعة أن الحضري ليس مختصاً في الآثار، مما يؤدي إلى صعوبات عند التعامل مع بعثات التنقيب. فاضطرت الحكومة العراقية، ممثلة بوزير خارجيتها نوري السعيد، إلى طمأنة السفير. وما أزعج الحضري أن الحكومة الزمته بمشاورة "يوردان"، والأخذ بمشورته، فوجه رسالة إلى الحكومة تؤكد فيها أن الاستشارة متعددة، وهي ليست حكراً على يوردان.

تقسم الآثار المستكشفة، حسب قانون العام 1924، مناصفة بين البعثة المنقبة ودائرة الآثار، هذا بالنسبة إلى الآثار المصرية، أما الآثار الفريدة فيجري تقسيمها بالقرعة، وحسب الحضري هناك ما تأخذ بعثات التنقيب من حصة العراق بحجة صيانتها، ومعالجتها معالجة خاصة، وبالتالي تذهب إلى متاحف الغربية دون عودة. أما قوانين الآثار اللاحقة فأخذت تضمن حق العراق في آثاره. وأهم ما تحقق حق تلك القوانين حرية دائرة الآثار في تعيين المراقبين، وفرض شروط إضافية على بعثات التنقيب، حتى أن عددها تنازل من إحدى عشرة بعثة إلى سبع بعثات.

لم تقتصر جهود الحضري على حماية الآثار المنقولة، وإنما بذل كل ما في وسعه لصد موجة إزالة المعالم الأثرية أو تحديث أبنيتها، بنظرة متعالية على الإرث الحضاري، جاء في مذكراته "عندما فكر أُرشد العمري في إنشاء بهو الأمانة (أمانة العاصمة) خارج سور القلعة أخذ يهدم البرج القائم في نهاية السور من جهة الشط، فتدخلت المديرية (مديرية الآثار) في الأمر ووقفت أعمال الهدم".

فرهود جديد

وبعد إفراغ المتحف العراقي من متعلقات تاريخ الرافدين يبقى الأمل في ما سيستخرج من تلك المواقع، وما اكتشف من مواقع جديدة بعدها، لكن العبرة في حمايتها من فرهود قادم، إن كتب للعراق أن يمتلك متحفاً آخر يتناسب مع ثروته الأثرية الهائلة. وقبل قيام الدولة العراقية، أي خلال العهد العثماني، كانت سرقات الآثار تجري على قدم وساق، ففي أواسط القرن التاسع عشر حملت السفن أنفاس الآثار العراقية إلى المتاحف البريطانية والفرنسية والأميركية، والبعثة التي تحصل على فرمان سلطاني بالتنقيب تحمل ما تشاء من الآثار، دون رقيب. قال سياتون لويد، المستشار الفني لمديرية الآثار العامة، في مقال نشرته مجلة "سومر" إنه خلال تلك المدة "سار على نهر دجلة الكثير من السفن والأكلال الموسوقة بالمنحوتات الأثرية، المرسله إلى متاحف الرئيسية في أوروبا والعالم الجديد، والمستندات التاريخية التي لا تملك تلك التي حل رموزها علماء الغرب".

غير أن من يطلع على كتاب "لغز عشتار" لفراس السواح سيعلم أن بابل موجودة في عبادات الشعوب كافة، ويوم كانت الكنيسة الرئيسية للمناوية، احتقرت من قبل ديانا عاشت حولها، والسّر والقصد هو إلغاء الماضي ليبدأ الجديد وكأنه جاء بلا صلة بذلك الإرث.

كان خبر اعتبار منطقة بابل الأثرية جزءاً من التراث العالمي خطوة عظيمة، مع تاخرها، لكن هل هناك من يُنفذ شروط اليونسكو، كي يبقى القرار نافذاً، أم أن الأمر سيكون مثلما كان مع الأهوار، بقى حبرا على ورق، لا قيمة له؟